المكتبة عند الشيخ الخديم

بقلم الباحث: د. محمد بمب درامي[84]

المقدمة:

هذه المقالة تنبني على ملاحظة ، مفادها: أنه كثيرا ما يقف الباحثون خلال مطالعاتهم في سيرة الشيخ الخديم على مَنْقَبة لافتة للنظر ، هي ظاهرة إكثارِه من الكتب (من مؤلفات ومصاحفَ) إكثارا يتجاوز القدر الذي تقتضيه الحاجة المعتادة. فكثيرا ما يُوجَد عند الشيخ الخديم للكتاب الواحد ما يناهز 5 (خمس) نسخ أو أكثر! وبالنسبة للمصاحف ، اشتُهِر الشيخ الخديم بالإكثار المبالَغ فيه للمصاحف ، حتى إنه كان يبني العديد من الدور الخاصة بالمصاحف ، لكثرتها عنده! إلى حدٍّ أن معظمَ الذين ألَّفوا عن مناقبه وسيره وقفوا عند هذه الظاهرة وقفات متفاوتة؛ بدءً بالشيخ محمد عبيد الرحمن العلوي ، فالشيخ محمد الأمين جوب الدغاني ، والشيخ محمد البشير نجل الشيخ الخديم ، والشيخ امباكي بص ، وكذلك الشيخ ابن اسمه الديماني وغيرهم ... فلم يَفُتْ واحدٌ منهم أن وقف عند هذه الظاهرة في تأليفٍ له يخصِّص لها بابا ، أو يتكلَّم عنها في جُمَل ، أو يكتفي بالكشف عن بعض الومضات التَّاريخية المتعلقة بهذا الباب ... وعند النظر في طريقة تناولهم لهذه الظاهرة ، يُلاحَظ أمران: **أولهما:** أن معظمَهم اقتصر على تناول طرف من الظاهرة دون سائرها. **ثانيهما:** غياب استنطاق **إشارات** الشيخ الخديم في الباب. والحال أن شأن الشيخ الخديم مع المصاحف والكتب العلمية أمرٌ يصعب اكتناهه ببادئ النظر ، وبالوقفة السطحية. فإذا علمنا أن أفعال الشيخ الخديم غالبا ما تكون **إشارات** ، وأنه كان من أمره المبالغة في تقصِّي المعاني السَّامية في أفعاله ، والارتفاع عن ممارسة أي أمر أو الاشتغال بأي شيء إلا وتحته رزين قصد ، وصدق نية ، وبُعد نظر ، وعمق فكر! إذا أدركنا كل هذا ، فإن الأمر يَحدُونا إلى لَم شتات هذا الموضوع وتعميق النظر فيه ، وهذا ما أحاوله في هذه المقالة ، أَمَلا في أن أَرسم للقُرَّاء الفضلاء لوحةً فَنِّيَّة أقرِّبهم بها من صُورةِ **المكتبة عند الشيخ الخديم؛ بتصوير مكتباته في مدينة طوبى وبلاد الصحراء وفي انجاريم**؛ بدءً بالإرهاصات الأولى في فُتُوَّتِه؛ وأنتهي بفتح بعض آفاق النظر في هذا التراث التليد.

إرهاصات الظاهرة ...:

إنها ظاهرة بدأت منذ فُتُوَّتِه ، حيث كان الشيخ الخديم مولَعا باقتناء الكتب ، إلى درجة أنه كان ربما باع غاليَ أثوابه بالكتب. رَوَى عنه أمين سره السيد محمد الأمين جوب أنه قال: "مما منَّ اللّٰه به عليَّ وقت تعلُّمي أنْ حَبَّب إليَّ الكتب واكتسابها"[85]!

وأول ما ظهرت وَمَضَاتُ هذا التوفيق الإلهي كان أيَّامَ مكثه في سالم مع والده الشيخ مامور أنت سل.

تحصيله كتابَ بداية الهداية[86]:

رأى ذات يوم أحد البيضان ، وعنده كتابُ **بداية الهداية**. فتعلق هواه بالكتاب ، فساومه البيضانيَّ ، فحدَّد البيضاني له ثمنا لم يكن عنده (**والثمن درهمٌ واحد!**). وكان من دأبه أنه لا يَمُدُّ يد الطلب للبشر ،

---

[84] باحث بمنتدى أبو ظبي للسلم

[85] النبذة ، اللوحة 8.

[86] تنبيهات:

1. ننبه القارئ الكريم أن التخاطبات التي وردت في هذه المقالة سيقت بصيغٍ تقريبية لا حرفية.
2. اعتمدنا عند تأريخ الأحداث التي وردت في هذه المقالة على كتاب **إرواء النديم من عذب حب الخديم** لمؤلفه السيد محمد الأمين جوب الدَّغاني.

ولا يطلب الحاجة إلا بالتعرض لنفحات الله! فلم يكن منه إلا أن أطلق عنان فكره في مسارح البدائل هُنَيْهَةً ، فطرأتْ ببالِه فكرةٌ ما لبث أن بادر إليها ...

طلب من البيضاني أن يرافقه إلى أحد التُّجَّار من أهل سالم ، ممن كان بينه وبين أُسرة الشَّيخ الخديم صلةٌ وعهدٌ. فأتيا هذا السَّيِّد التاجر زائرَيْن ، فلما رآه المضيف على حالته من رَثَّة الثياب لَمْ يُعجبه ما رآى ، فأنكر منه ذلك وأَعطاه بُردا فاخرا وطلب منه أن يستبدله بالرَّثِّ الخلِق الذي كان يرتديه. ففعل ...

فلمَّا انقضت الزيارةُ ، وأخذا طريقهما للعودة ، عرَّج الفتى البَكيُّ [87] بمكانٍ ، وعليه أثوابه الجديدة الفاخرة ، ثم خرج منه وقد عاد إلى حالته السابقة من رَثَّة الثياب! فلم ينقض العجبُ مما فعل حتى مدَّ يده إلى الموريطاني ، وبها البُرد الفاخر مطويًّا يستبدله بالكتاب وهو يقول: "تُمسِك هذا الثوبَ عنى مقابل الكتاب؟" ... فلم يتوان البيضاني عن أخذ الثوب مغمورا بالفرح ، ولسان حاله يخاطب المشتري بـ **خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ**! أخذ الشَّيخ الخديم كتاب **بداية الهداية** الذي سيُشكِّل عَهْدَ مرافقةٍ بينه وبين مؤلِّف الكتاب: **أبي حامد الغزالي** ، الذي سيبقى أثرُ الحب والإعجاب بشخصيته ظاهرًا في الشيخ الخديم مدى حياته ... [88]

تحصيل كتاب فتح الأقفال:

وبِمِثل هذه الطريقة كان اكتسابه لكتاب **فتح الأقفال** ، شرح لامية الأفعال[89]. فإنه رآه أيضا عند أحد البيضان اسمه **الحسن الشريف** ، فساومه الكتاب ، فحدَّد البائعُ الثمنَ بـ **3 دراهم** من الفضة البيضاء ، فقبل الفتى البَكيُّ وطلَب من الشـــَريف أن يسير معه حتى يكتسب الثمن. فذهبا ... فلم يُكتَب له نُجحُ الحاجة مع جَهده في الطلب ، فلمَّا تعِب الموريطاني من التجوال وقف يخاطب العبد الخديم متمثِّلًا بقولة الشاعر:

إِذَا حَدَّثَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ قَادِرٌ = عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذِّبِ

فتحمَّل العبد الخديم منه ذلك ، ولم يَمَلَّ من التعرض لنفحات الإله حتى ظفر بمبتغاه. فسلَّم الثمن للبائع وهو يقول مجاوبا ، ومعبِّرا عن توكله الكُلي على المولى عز وجل ، ووجهه يتلألأ:

إِذَا حَدَّثَتْكَ الكَنْزُ أَنَّكَ قَادِرٌ = عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَصَدِّقِ

ثم أخذ كلٌّ حقَّه ، مستبشرا ببيعه الذي بايَع به.

وهكذا نشأ هذا الحبُّ والولع بالكتب ونما في شخصه ، إلَّا أن واجب البِرِّ بالوالد وقِلَّةَ ذات اليد أقعداه دون السعي في تحصيلها ...

عندما توفي الوالد رحمة الله عليه سنة 1882 ، لم تمض على ذلك إلا سنواتٌ يسيرة حتى بدأ الشيخ الخديم رحلات طويلة إلى المشايخ في بلده وخارجه ، يطلب الأوراد والأذكار منهم ، ويلتقي بالعلماء منهم ويحصِّل الكتب من بين ما كان يحصِّل. وطار ذكره في القطر السنغالي وما جاوره ، حتى إن أحد الرَّحالين

---

[87] والفتى هنا بمعنى **الكامل الجزل من الرِّجال**. ذكره ابن منظور نقلا عن القُتَيبِيِّ ، مستشهدا بقول الشاعر:
إِنَّ الفَتَى حَمَّالُ كلِّ مُلِمَّةٍ = ليسَ الفَتَى بمُنَعَّمِ الشُّبَّانِ [لسان العرب: مادة فتا].

[88] وانتهى بكتاب بداية الهداية أن نظمه في منظومة لطيفة سماها **مُلَيِّن الصُّدور** سنة 1877. ثم أعاد نظمه سنة 1904 لأن أيديًا امتدت إليها وفعلتْ فيها ما فعلت. واختار لهذا الثاني تسميةَ **مُنَوِّرُ الصُّدور** ، وهي المتداول اليوم. والأولى في 200 بيت والثانية في 211 بيت.

[89] لمؤلفه بَحْرق.

المصريين كتب عام 1926 يحكي أنه عندما رحل إلى صحراء موريطانيا ما بين 1895 و 1902 لم يدخل بيتا من بيوت العلم إلا ويجد ألسنتَهم رطبًا من ذكر شخص سوداني ، اسمه **أحمد بمب**! فدفعته الرغبةُ في التعرف على هذ البدر الساطعِ النور إلى زيارة وطنه سنغال ... إلَّا أن الحظَّ لم يحالفه ، إذ وجد أنه كان مُغَرَّبًا إلى بلد من نواحي الجنوب: غابون [Gabon].

وهكذا ستبقى الحال حتى تَتَكَوَّن مكتبتُه الأولى في مدينته المطيَّبة **طوبى**.

مكتبته بمدينة طوبى:

كانتْ مدينتُه الحبيبة إلى قلبه طوبى[90] هي المكان الذي اختاره وآثره على غيره من بين العديد من القرى التي أنشأها ليجمع به كتبه الكثيرة. لأنه أراد لهذه المدينة أن تكون مركزا للتعليم والتربية والبحث ، كما يفهم ذلك من قوله مبتهلا إلى الله تعالى في إحدى قصائده:

واجعله دأبا مسكن التعلم=وموضع الفكرة والتفهم

ومسكن الإرشاد والتعليم=ومسكن التصويب والتفهيم[91]

وعلى هذا شيَّدَ حظيرةً داخل المدينة أودع فيها الكتب التي كانت تأتيه من كل مكان.

مواصفات مكتبة طوبى – المساحة:

مساحة الحظيرة التي بناها الشيخ الخديم هي 800 متر مربَّع. وقد بنتها جماعة المريدين تحت رئاسة أخيه مام جارِن بُرَاهيم (الشيخ إبراهيم امباكي) كما هو دأب المريدين في جميع أعمالهم. فيتكلَّف كلُّ واحد من المشاركين في العمل بأن يجلب ما يناهز 100 قطعة خشب. وهكذا تمت بناية مكتبته بطوبى.

كان الشيخ الخديم في أوَّل الأمر أوقف بيتا واحدا لكُتُبه. وبعد ذلك كَثُرتِ الكتبُ حتى عمَّرتْ معظم تلك البيوت أو كثيرا منها. حيث إنَّ السيد أَنْتُوَان لَسِيلف [ANTOINE LASSELVES] ذكر في تقرير له سنة 1915 أن تلك الأكواخ السنغالية الصناعة في مدينة طوبى كان يناهز عددُها الأربعين ، وأنَّ جميعها تحوي كتبًا!

مكتبته بموريطانيا:

عندما همَّ الشيخ الخديم بالسَّفر إلى موريطانيا سنة 1903 ، كلَّمه بعض مريديه في أمر حمل بعض كتبه إلى محلِّه في بلاد شنقيط ، فأجابهم الشيخ أن:"**مَنزِل الكتب معي**"! ومعنى هذا الكلام فيما أرى: أنَّ محتوى كتبه ومعناها معه في صدره ، فلا داعي إلى نقل أجرامها. ولعل هذا المعنى يتفق مع قوله:

لست أجول لالتماس المعرفة = نكرة كنت فصرت معرفة

أو يكون معنى العبارة أن السِّرَّ الذي من أجله تأتيه الكتبُ دائما يلازمه حيثما ذهب. وقد ظهرتْ آياتٌ كثيرة في موريطانيا دالة على صدق هذا الكلام منها:

- أنه لم يمكث فيها إلَّا أشْهُرا حتَّى اجتمع عنده من الكتب ما وصفها محمد عبد الله العلوي في كتابه النفحات المسكية أنها لم تجتمع عند أحد غيره. وأضاف أن كتابا واحدا تكون عنده عشراتُ النسخ منه.

- أنه خلال السنوات الأربعة التي مكثها في بلاد شنقيط (1903 -1907) ، اجتمعت عنده كتبُ المذاهب الأربعة مجلوبة من مصر. (لمزيد

[90] لقد أنشأ الشيخ الخديم مدينة طوبى سنة 1888.

[91] انظره في قصيدة مطلب الفوزين.

التفصيل حول هذه القصة اقرأ ما كتبه السيد العلوي الذي كان مبعوث الشيخ إلى موريطانيا لاقتناء الكتب ، النفحات المسكية ، صـ 153).

- أن بعض المشايخ من شدة حبهم وإعجابهم بالشيخ الخديم ، ومن كبير توفيق الله تعالى للشيخ الخديم ألفوا كتبا وأهدوا للشيخ النسخة الفريدة التي كانت عندهم منها...

- منها ما حكاه السيد محمد الأمين (بارا) امباكي نجل الشيخ الخديم في كتابه دليل الحائر عند معرض الحديث عن استعداد الشيخ الخديم للعودة إلى بلده سنغال من بلاد الصحراء: " فَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُرِيدِينَ بِالتَّهَيُّئِ وَالاسْتِعْدَادِ لِأَنَّ مَتَاعَهُ كَثِيرٌ ، وَلَاسِيَّمَا الْكُتُبُ؛ فَإِنَّهُ جَمَعَ مِنْهَا فِي أَرْضِ الْبَيَاضِينِ مَا لَا يُحْصَى".

نظرات في جمعه أمهات مصنفات المذاهب الأربعة:

إن بعث الشيخ الخديم محمدا عبيد الله العلوي إلى مصر ليكتسب له أمهات كتب المذاهب الأربعة لم يكن مجرد اتباعٍ لمقتضى الإلهام. إنه ، علاوة على ذلك ، أمارةٌ دالة على انفتاح فكري وسعة اطلاع عند عالمٍ مالكي التَّكوين والتَّمذهُب ، عاش في بيئة مالكية لا يكادُ أهلها يعرفون من المذاهب الأخرى في تلك الآونة إلا الأسماء.

وقد يكون تحصيله لهذه الكتب من إحدى ممهدات المشروع الكبير الذي توفي الشيخ معه. فقد ذكر الشيخ امباكي بص في بعض رسائله أن العبد الخديم توفي وفي نفسه حاجاتٌ. منها: مدرسة تكون رِحلةَ السنغال إليها في العلوم العربية شرعيتها وآلاتها. وقد أعدَّ لها كُتُبًا لا توجد عند غيره. ولعل الشيخ إنما رآى ضرورة التزويد المعرفي الذي يتجاوز حدود المتعارف عليه في المنطقة لكي يُقدِّم لنخبة علماء الدين العدةَ التي ستمكنهم من التفاعل مع السياق العالمي الجديد الذي سيُجَرُّون إليه لا محالة ، بما فيها العولمة.

فإن من مقتضيات هذه العولمة الواقعة اليوم (مع ما اجترَّ معها من التداخل والتعامل المفروض بين الشعوب على ما بينها من التباعد الحسي والمعنوي) لدى العالِم الشرعي أن لا يكونَ خالي الذهن مما عليه الآخرون ، وذلك لكون الاكتفاء المطلق بالذات شبه مستحيل في سياق العولمة. فهو كان يعد العدة لهذا الآتي ...

مكتبته في انجاريم:

جربل هي آخر مراحل حياة الشيخ الخديم. ففيها أيضا كانتْ مكتبةٌ ضخمةٌ ثرَّةُ الكتب. ويمتاز العهد الذي قضاه الشيخ في جربل بخصائص لا توجد عند غيره ، منها أن أيامه فيها كانت كالأعياد من كثرة زَوْر النَّاس له ، وقصدهم لمجالسِه العامرة على قِلَّتِها ونُدْرَتها.

فهذا أنتوان لسيلف [ANTOINE LASSELVES] الذي كان عامل فرنسا على منطقة جربل (1912 - 1915) مسكن الشيخ الخديم من سنة 1912 إلى التحاقه بالرفيق الأعلى سنة 1927 ، يَصف لنا — متعجِّبا - دار الشيخ الخديم قائلا: إنَّ السُّور الذي يحيط بداره في جربل كان يحتوي على بيوت صغيرة ، وتلك البيوت جميعُها تحوي كتبا على وجه الخصوص.

ومن أمره في مدينة جُرْبل أن دهاليزَ دياره كانت مجمَعَ الورَّاقين: فهذا ينسخ مخطوطا؛ وذاك يكتب مصحفا؛ وهذاك يُزيِّن الكتب بزخارفَ عربية ملوَّنة ، وأولئك يأتون له بهدايا الأوراق والأقلام ... وكُلًّا يكافئ بما يُزْرِي الحاتم من غير اكتراث! ومن أمثلة ذلك أن السيد محمد بن أحمد بَابَ الأحمدى الدَّيْمَانى (الشهير عندهم بالزروق) نسخ له كتاب الحطاب ، ولعله شرح الحطاب على مختصر الخليل.

ولم يكتف الشخ الخديم بالاستنساخ ، بل كان يطلب الكتب ويستجلبها ولا يبالي ببعد المسافة وغلاوة الثَّمن. ولا يبالي في ذلك أن تكون عنده نسخٌ من الكتاب الواحد ، فقد سبق معنا كلام العلوي في النفحات في هذا الباب. وبمثله شهد محمد الأمين جوب الدغاني: "لا يَرُدُّ كتابا وإن تكرَّر مرارا ، وإن كان مقطوع الطرفين". وممن كان يزوده بالكتب تاجر من المغرب اسمه **عبد المجيد بن جلون** ، وكان يتوسط بينهما مريده وأمين سره السيد محمد الأمين جوب الدغاني.

شأن الشيخ الخديم مع المصاحف:

شأن الشّيخ الخديم مع المصاحف كان من أعجب الأُمور ، ومن النادر أن تجد إنسانا يعامل المصاحف بما عامل به الشيخ الخديم إياها.

كان يُكرمها؛ ويجلُّها؛ ويبني لها أروع البيوت؛ وينزلها أفخر السُّرُر؛ ويعطي مقابلها غاليةَ اللُّهى ونفيسَها؛ ويفرح بكل ما أُهْدِي له منها فرحةَ الآيس عن راحلته ، وهو في فلاة ، وقتَ ظهورها! وأعجبُ من ذلك مبالغته في إكثار المصاحف. يقول صاحب النفحات — وهو شاهد عيان — واصفا كثرة المصاحف عند الشيخ الخديم: "ومما جمعَ منْهُ مَا لا يُعرف قَدْرُه المصاحفُ"! فكان يبتاع منها في موقف واحد مئات المصاحف ، ويحتفظ بها لنفسه! حكى محمد الأمين جوب الدَّغاني أنه يذكر ذات يوم اشتُرِيَ للشيخ بإذنه في موقف واحد ثمانمائة (800) مصحف!

وإذا نحن خضعنا شأن الشَّيخ الخديم مع المصاحف لقراءة اقتصادية ، يظهر لنا أنه كان يتخذ هذا الأمرَ وسيلةً لإعادة توزيع الهدايا التي تأتيه كلَّ يومٍ ومن شتى الجهات. وقد يكون أنه أراد مناهضة تغرير المستعمر لرجال الدين. فإنه بنَظَره الثَّاقب رَأى أنَّه لمواجهة تغرير المستعمر لبعض من تنسَّل من سُلالة **دُومِ سُخْنَ** بواسطة استخدامهم في بعضِ وظائفَ حُكوميَّةٍ فيفقدون الاستقلالَ التَّام ، لمناهضة هذا الأمر جعل الشيخ الخديم كتابة المصاحف مصدر رزق مضمون لكل كاتب. فيَستَكتبهم ويبتاع المصاحف منهم ، بما يغنيهم عن الاتكال على الحكومة ، ويخول لهم الاستقلال.

وكان بعضُ الفتيان الذين كانوا تحت إمرته إذا أُصيبوا بالعَيْلة ، كتبوا مصحفا بالاشتراك بينهم وقدَّمُوهُ للشَّيْخ ، فيُعطيهم مقابلَه ما يَسُدُّ حاجتَهم. وربما آجر بعضَ الفتيان الحَسَني الخط ويمسكهم عنده مُدَّة ليَنْسَخوا له فيها كتبا أو مصاحف ، ويُعِدُّ لهم من أجل القيام بهذه المهمة مأوًى ونفقة؛ ويكافئهم بما تَقَر به أعينهم؛ فلم يكن *"يخلو من شهر من نحو مئاتٍ من مصاحف الخط"*[92]. وقد بنى لهذه المهمة دارا قريبة من داره بمدينة جربل ، ويستخدم الفتيان فيه في كتابة المصاحف؛ وتلاوة القرآن كاملا: 4 مرات كل يوم ، وسبع مرات ليلة الجمعة.[93]

وزاره محمذ بن احميد عندما كان في موريطانيا ، فقال له الشيخ: بلغني أنك حسنُ الخط ، أريد أن تكتب لي مصحفا. فأجابه محمذ بن احميد أن **نعم**. فنصب له خيمة وهيَّأ له المعونة.

وأتاه الشيخ محمد بن أدشاغ اعمر أيام تغريبه إلى موريطانيا وكتب له ستة وستين (66) مصحفا بخطه الجميل. وقد وقع له مع الشيخ الخديم كرامة في هذا الباب. وهي أن الشيخ محمد أدشاغ كتب مصحفا وأهداه للشيخ. فأمسك المصحف بيديه وضمه إلى صدره من شدة فرحته به ، ثم قال له في الحين: ليس في هذا المصحف من خطأ سوى شِدَّة حرف الكاف من

---

92 إرواء النديم: 208.

93 إرواء النديم: 210.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ لعلك نسيتها. فنظر الكاتب في المصحف فإذا هو كذلك.

وبمثله فعل ابنه محمد. فقد رحل إلى السنغال ولازم الشيخ حتى كتب له بيده 33 (ثلاثا وثلاثين) مصحفا وأبى أن يأخذ مقابلَه شيئا من المال.

وكان الشيخ الخديم يتأدب مع المصاحف أحسن تأدب. فقد روى ابن اسمه الديماني أن العبد الخديم كان ذات يوم يساير أحدَهم ، فلما اقترابا من إحدى الدور التي فيها مصحف أو مصاحف خاطب مرافقه قائلا: " سِرْ واخْفِضْ صوتَك؛ فإنَّ هذا البيت الذي حولنا فيه المصحف"!

وفي الختام:

أَمْر العبد الخديم مع المصحف الشريف تضيق عنه وُرَيقات ، لكن حسبي في هذا المقام أن أشير إلى ورشة مهمة ، ثم أهيب بالباحثين والناظرين في سيرة هذا الجهبذ الفَطِن إلى ضرورة استنطاق إشارات الشيخ الخديم.

إن تصرُّفات الشَّيخ الخديم معظمها لا يخلو من إشارات. فَمَنْ عرف شيئا وإن قليلا عن العبد الخديم عَلِم أنه ما كان يحرِّك ساكنا ، ولا يتخذ لنفسه سُنَّةً إلا لاعتبار. أمرُه كلُّه جِدٌّ؛ وتَقَصُّصٌ لمعالي الأمور. فواجب ورثته السَّعيُ نحو اكتناه تلك الإشارات ...

ففي بعض قصائده نجده يشير إلى أن ثمة أمور ثلاثةً لا بُدَّ لمن يُعنى بأمره ويستهدي بهديه أن يَعتبرَ منها ويستحضرها؛ تلك الأمور الثلاثة هي:

1) كتاباته؛ 2) كلامه؛ 3) إشاراته.

يقول في **جالبة المراغب**:

وَبِكِتَابَتِي رَبِّ رَبِّ=كُلَّ مُطَالِعٍ لِوَجْهِ الرَّبِّ

وَبِكَلَامِي وَبِالإِشَارَه =اهْدِ مُرِيدًا يَطْلُبُ الإِنَارَهْ

فكتاباته (نظما ونثرا) تشمل الكتابات التعليمية؛ والأذكار.

وأما **كلامه** وأقواله المأثورة ، فقد وفَّق الله بعضَ أصحابه إلى تدوين بعض مقالاته ، مثل الشيخ مختار بنت لوح ، وسرين صله ، وفي الكتب الخاصة بسيرته ومآثره طرفٌ من مقالاته. ومن أهمها في هذا الباب كتاب **وختان سرچ طوبى** للسيد أحمد امباكي باللهجة الولفية.

وأما **إشاراته** ، فهي كل تصرفاته وأفعاله. وتدخل في هذا الباب هذِهِ الظاهرة التي هي موضوع مقالتنا هذه.

وإشاراته هذه ذاتُ أهميَّة بالغة. فَمِن دَلائِلِها أنَّها تأويلٌ لِبعض أقواله المبهَمة ، ووسيلة للبتِّ في بعض ما اختُلِف فيه من مواقفه ، وبيانٌ لمنهجه الصُّوفي التَّربوي الذي اختاره لنفسه وربَّى عليه أصحابه. وإذا ما أغفل باحث أو متأمل واحدًا من هذه الثلاثة ، فلا يخلو أن تخرج نتائج تأملاته أقطعَ أبترَ.

ولهذا ، فمما يعكِّر صفوة المنهج الخديمي ويهدِّدُ أساسَ بُنيانِه تساهُلُ بعضِ المسؤولين ورثةِ الشيخ الخديم في الأقاصيص الغريبة التي يُرَوَّج لها ، مما يخالف ما كان عليه الشيخ الخديم وأصحابه.

ولقد تنَبَّهَ لأهمية الوقوف عند هذه الإشارات الشَّيخُ أحمد ابن اسمه الدَّيماني ، فقال وهو يتأمل في بعض إشارات الشيخ الخديم: "إن الشيخ رضي الله عنه لا يعبث ، وحاشاه عن العبث"!

فهذه الإشارات الخديمية مرتع فكريٌّ نهيب بالباحثين إلى الرعي منه ، والإفادة منها.

ومن الأسئلة التي تظل معلَّقة بعد وقوفنا على هذه الظاهرة: أين المخطوطات العلمية التي كان يملكها الشيخ الخديم؟ أين تلك النسخ الفريدة التي أهديت

له من طرف المؤلفين؟ وهذا السؤال يجد جدارته إذا استحضرنا ضخامة مكتبه التي كانت تحوي المطبوعات والمخطوطات في شتى الفنون.

إن بقاء مثل هذه الأسئلة معلقة قد يكون دليلا على أن التراث العلمي الذي خلفه الشيخ الخديم لم يلق من العناية والخدمة ما يستحق بعدَ ما يقرب من قرن من وفاته! هذه الأمور كلها تقتضي وقفة مراجعة الذات والمنهج للارتقاء بهذا التراث الخديمي إلى المنزلة التي يستحقها.د

المصادر والمراجع:

محمد الأمين جوب الدَّغانِي، النبذة المباركة، (مخطوطة بحوزتنا).

محمد الأمين جوب الدَّغانِي ، إرواء النديم من عذب حب الخديم ، تحقيق عبد القادر امباكي شيخ ميمونة وآخرين ، منشورات الرابطة الخديمية للباحثين والدارسين ، طوبى – السنغال ، 2017 م.